الأسلوب واللغة

يتحدث " هكسلى " فى قصته تقابل الألحان *paint conter paint* وعنوانها يوحى بتركيبها الموسيقى عن ضرورة " موسقة النثر القصصى . لا بطريقة الرمزيين بإخضاع المعنى للصوت ..ولكن على نطاق أوسع فى تركيب القصة "(١).

ويشرح " جورج ديهاميل " أهمية موسيقى الأسلوب الروائى فى إسهاب نقتطف منه هذه الفقرات لأهميتها ، ويقول فيها :

" إن موسيقى الأسلوب فى نظرى شرط لازم لسيطرته على النفوس . نعم إن الروائى الحق هو الذى يعرف قبل كل شىء بعضاً من أسرار الحياة ، ولكنه أيضاً رجل يلجأ فى التعبير عما يعلم ، إلى موسيقى لفظية يستخدمها بطبيعته ، فيتميز بها كأمارة خفية لخصائص نفسه .

ولا أكاد أجرؤ أن أقدم إلى الكتاب الناشئين نصيحة فى هذا الميدان الشاق ، ومع ذلك يتفق أن تدفعنى الرغبة فى خيرهم ، أن أقول لهم : ليكن اللحن فى أول كتبكم رائعاً. يجب أن تجذبوا القارىء فى غير تعثر ولا مشقة ، وهو لم يعرف بعد شخصياتكم الروائية ولا تملكته وقائع قصتكم ، أو قوة تصوركم ،أو صدق نظركم النفسى ، ليكن فى موسيقى الأسلوب ما يسهل له الأخذ فى المغامرة . أجيدوا الغناء كى تأسروا تلك النفوس الشاردة التى تريدون أن تستولوا عليها .

قلت لغة سليمة ، وأقصد بذلك لغة بسيطة . إذ من الهواة الذين ملّوا كل شىء ، من يفضل التنقيب عن شواذّ اللغة ، وشواذّ التركيب ، واهماً أن أصالة الكاتب فى الألفاظ والتركيب ؛ بينما الأصالة الحقيقية ليست فى الصياغة وخصوصاً عند الناثرين وإنما هى صفة فى النفس ، حتى ليذكرنى هؤلاء القراء الفاسدون بأولئك النهمة المنحلين

١ - طه محمود طه ، القصة فى الأدب الإنكليزى ، ٢١٢.

الذين يحلمون بالأطعمة الخارقة ، فيودون أن يأكلوا (أوكار القطاة) ، أو (خراطيم الحلاليف)، أو (أجنحة الزقا) ، وتلك نزوة ساعة ..نزوة حقيرة .

إن غرائب الأسلوب ليست شيئاً ، وإنما العبرة كما قلت بتلك الموسيقى التى لا توصف ، والتى ماهى إلا نغمات نفس "(١).

وإذا كان " هكسلى " يتحدث عن موسيقية التركيب القصصى لتحقيق التناغم بين العناصر الروائية المختلفة ، فإن " جورج ديهاميل "يقدم درساً مفيداً ، يحتاجه قصّاصونا وروائيونا العرب المعاصرين ، الذين نظروا – فى معظمهم – إلى اللغة والأسلوب نظرة دونية ، وأهملوا ما يتعلق بالصياغة الصحيحة ، سواء كانت نحواً أو صرفاً أو تركيباً أو بياناً ..إلخ وعللوا ذلك أحياناً بالواقعية التى تقتضى التساهل فى اللغة ، والاهتمام بالبناء القصصى من حيث تصوير الشخصيات وترتيب الأحداث .

إن " جورج ديهاميل " يقدم درسه إلى جميع الكتاب الروائيين ، وليس إلى الناشئين وحدهم ، لإدراكه أن موسيقى الأسلوب أمارة نفسية تدل على صاحبه ، لذا فإنه يطالب الروائيين بإجادة الغناء للسيطرة على نفوس القراء ، ولاشك أن عدداً من كبار روائيينا المعاصرين قد حققوا نجاحاتهم لدى القراء ، بفضل أساليبهم الراقية بدءاً من المنفلوطى حتى يومنا هذا ، ولولا الأسلوب الموسيقى ما بقى لهم فى الوجدان شىء ..

ثمة نقطة مهمة للغاية فى كلام " ديهاميل " وهى حديثه عن اللغة السليمة أو اللغة البسيطة ..فهذه اللفتة من جانبه تدل على وعى ناضج بطبيعة الأسلوب المتجه إلى القارىء وضرورة أن يكون هذا الأسلوب فضلاً عن موسيقيته قائماً على السلامة اللغوية والبساطة التعبيرية ، إذ أن التعقيد اللغوى والتقعر التعبيرى لا يمكن أن يحققا أسراً للنفوس الشاردة

١ - محمد يوسف نجم ، فن القصة ١١٥-١١٧.

ولا استيلاء عليها .إن بعض الكتاب يقعون فى التعقيد والتقعر ظناً منهم بأن هذه الوسيلة المثلى لإبهار القارىء وإدهاشه وإثبات الوجود الأدبى ، ولكن هيهات أن يتناغم قارىء مع أسلوب بعيد عن وجدانه غريب على فطرته .إنه يبحث عن تلك الموسيقى التعبيرية الخفية التى لا توصف " كما يقول "ديهاميل " والتى يراها " نغمات نفس "..

ويعدّ نجيب الكيلانى من أبرز الذين برعوا فى تقديم تلك الموسيقى التعبيرية الخفية ، أو نغمات النفس التى أشار إليها " ديهاميل ".

إن الرجل يلجأ إلى لغة سليمة ..لغة بسيطة . يقدم من خلالها شخوصه وأحداثه دون أن يقع فى مزلق التعقيد والتقعر أو الإغراب اللفظى والتركيبى ..بل إنه خطا خطوات أكبر ، عندما استطاع أن يستفيد من النصوص الإسلامية والأدبية فى إثراء لغته ومعجمه وقدراته التعبيرية أو التصويرية ، ثم إنه كان على وعى بأن الاختزال فى التعبير قد يحقق تأثيراً أقوى أضعاف المرات من الإسهاب والإطناب ونجد ذلك فى سرده وصفاً وتصويراً ولفظاً وحواراً وتضميناً وخيالاً . وسوف نتوقف عند بعض هذه الملامح لنرى كيف عالجها فى لغة سليمة ..لغة بسيطة ، وحقق الغاية الفنية فى صورة مؤثرة .

الوصف :

اعتمدت الروايات الأربع على السردّ بضمير الغائب ، لذا فقد كانت مهمّة الكاتب هى تقديم العناصر الروائية الأساسية فى سياق حىّ ، يمنع الترهل والتضخم والحشو ، وتوصل إلى ذلك بالتركيز فى الوصف ، والاختزال ليبقى شحنة التفاعل بين القارىء والنص قائمة ومتوهجة ، وقد لا نعثر فى رواياته هذه على وصف مسهب أو تتبع دقيق للجزئيات ، ولكننا بلا ريب نطالع وصفاً مركزاً دالاً يقدم لنا الشخصية أو الحدث تقديماً موسيقياً شاملاً لكل المعانى التى يريد توصيلها ، أو التى يتغياها ..دعنا نقرأ

بطريقة عشوائية وصفه لشخصية عوض العوضى ذلك الأفاق الذى قبض عليه فى جنازة قتيل العراق ، عندما اعترف كذباً تحت وطأة التعذيب بأن الشيخ حسب الله ، والشيخ أبو المجد شاهين كونا تنظيماً متطرفاً لقلب نظام الحكم ، وفى هذا الوصف تقديم لأعماق رجل كان ينوى التوبة ، ولكن التعذيب أجبره على إيذاء رجلين يحبهما لينجو بجلده :

" عاد عوض إلى الزنزانة ، وهو يحمد الله على أنه نجا – ولو مؤقتاً – من حساب الزبانية وارتمى على الأرض منهوك الجسم والعقل والروح ، أحضرواله الزاد ، كان جائعاً جداً ، وأخذ يحشو فمه بالطعام ..لكنه توقف فجأة ، طاف برأسه خيال العابد الزاهد أبو المجد شاهين والرجل الصالح حسب الله ، كيف سوّلت له نفسه أن يقول فى حقهما ما قال ؟ ألكى يحافظ على حياته ؟؟ليته مات ولم يفعل ما فعل . وهل فى حياته – حياة الخطف والسلب والهروب واللعنات – ما يحرص عليه ؟؟ لقد ظن أن حياته ستبدأ من جديد عندما وعدته براعم بالعمل عندها وأعطته عشرين جنيهاً ..عندها فكر فعلاً أن يغير من نظامه ، ويدخل ميدان العمل الشريف .. لكن للأسف وقع فى المصيدة وهو يسير فى الجنازة ..إنه دائماً يشارك فى كل جنازة وفى كل فرح ويهتف مع الهاتفين من كل لون ويبكى مع الباكين إنه يستخدم عواطفه وطاقته فى كل ما يعود عليه بالنفع ..يسير فى موكب كل مرشح فى الانتخابات ، ويأخذ المال من كلا المتنافسين ، ويأكل على موائد الجميع ..لكنه فى يوم الانتخابات لا يدلى بصوته لأحد ..

لقد ارتكب الكثير من الموبقات ، لكنه يشعر اليوم أن الشهادة الزور التى دفعه إليها الضابط أشد الموبقات ضلالاً فى حياته ..كان فى مقدوره أن يفعل أى شىء إلا أن يتهم أبو المجد وحسب الله ..تمتم : أنت يا عوض وسخ وابن حرام "(١) .

١ - ملكة العنب ، ٦١.

تأمل تلك الصورة الناطقة بأعماق رجل قضى حياته فى البحث عن المنفعة ، ولا شىء غير المنفعة ، ضارباً عرض الحائط بكل القيم والأخلاق ، ثم يقع فى المصيدة عندما يتهيأ للتحول والتغير والانتقال إلى عالم الأسوياء ؟ ثم تأمل ذلك المعجم الإسلامى الراقى الذى يأتى قريناً لكل ما هو طيب وجميل " يحمد الله ، العابد الزاهد ، الرجل الصالح ، العمل الشريف " ثم تأمل تلك اللغة التى تتطابق مع موقف الغدر والخيانة والشهادة الزور : أنت يا عوض وسخ وابن حرام "، إنها لغة العامة حين يصفون الشخص المنحرف الذى لا خلاق له ، وجاءت دلالتها أدق تعبيراً عن حالة يصعب أن توضع لها ألفاظ أخرى ، مع ما فيها من ابتذال ، ولكنه الابتذال الذى يتناسب مع الجريمة البشعة التى ارتكبها " عوض العوضى "فى حق الرجلين الطيبين ..ثم تأمل تلك المفارقة فى وصف الرجل لنفسه من الداخل وإحساسه بالدونية ، فى الوقت الذى يعلم حاجة الجميع إليه وإلى هتافه وبكائه وسيره فى كل المواكب واستفادته من الجميع ، ومع ذلك فهو أنانى لا ينفع أحداً ولا يخدم أحداً " فى يوم الانتخابات لا يدلى بصوته لأحد !" ..ثم تأمل وصف الكاتب له بعد التعذيب وخروجه من الزنزانة " منهوك الجسم والعقل والروح " ، ليكشف عن أثر التعذيب الممتد الذى يتجاوز الجسد ، إلى إنهاك " العقل والروح " وما أدراك ما العقل والروح بالنسبة للإنسان إذا أنهكا أو تعبا؟ إنه حكم معنوى بالموت على صاحبهما . إذ ما الفائدة من إنسان بلا عقل ولا روح .ولكنه التعذيب الوحشى يقتل الروح والعقل ، قبل أن يؤلم الجسد أو يجرحه !! ثم تأمل تصوير الكاتب لإحساس المجرم بالذنب دون أن تملك الضحية الردّ على جريمته أو استنكارها " ليته مات ولم يفعل ما فعل " و" كان فى مقدوره أن يفعل أى شىء إلا أن يتهم أبو المجد وحسب الله ..تمتم : أنت يا عوض وسخ وابن حرام "!.

إنها لغة سليمة ..لغة بسيطة ، تحقق موسيقية التعبير ودلالاته التى تقصد إليها الرواية دون افتعال أو تكلف ، وأيضاً دون ترخص أو إسفاف ، ولعلنا لو أخذنا بطريقة عشوائية أيضاً نموذجاً آخر يصور فيه حالة " المدمن " وقد امتنع عليه " المخّدر"يكشف لنا عن عمق الحساسية الوصفية أو التصويرية التى يملكها الكاتب الخبير بلغته الروائية ؛ إنه يصف لنا فى النموذج التالى موقف " الراعى كشكل " الحشاش المدمن الذى تم اعتقاله فى أحداث جنازة قتيل العراق ، وأخذوه للتحقيق :

" جاء دور الراعى كشكل " الذى بدا أسوأ حالاً من الجميع فهو عاجز عن التفكير قد خاصم النوم جفنيه ، ورأسه يكاد ينفجر من هول الصداع ، وآلام البطن تمزق فى أحشائه ، ولا يستطيع أن يفتح عينيه المحمرتين المتورمتين ، وكل أجزاء جسمه تنبض بالألم ، فقد عاش سنوات عمره حليفاً " للكيف " ، ليتهم يأخذون نصف عمره ويعطونه ريحة أفيون أو قرصاً من الأقراص المهدئة ، أو ربع حشيشة ، إن الانقطاع المفاجىء عن الكيف يكاد يذهب بالبقية الباقية من عقله ، وأحيانا يشعر أن روحه تخرج من جسده لولا بقية تافهة من إرادة فى الأيام الخوالى ، كانوا يأخذونه إلى الحجز فى نقطة الشرطة أو المركز لكن لم يعدم حيلة فى الحصول على المخدرات ، العسكر أنفسهم كانوا يهربون إليه ما يريد ويتقاضون الثمن أضعافاً مضاعفة ، لكنه فى أمن الدولة يجد نفسه سجيناً محاصراً عاجزاً عن التصرف ، إنه لا ينشغل الآن بأمر السياسة ، ولا يفكر فى المظاهرة ، ولا فى القضية التى هو معتقل بسببها ، والتى لم تخطر له على بال قط ، حتى أثناء هيمانه فى دنيا المخدرات عند التعاطى فالمدمن أنانى بطبعه ، ولا يهمه زوجة أو ابن أو وطن أو قيمة من القيم .أخذ يدق باب الغرفة فى جنون ، طالباً الطبيب ، لكن العسكر أنبوه وضربوه ، كان

كمن فقد الإحساس لا يشعر بآلام الضرب ، بليداً لا يعى معنى الإهانة ، ضعيفاً لا يكترث للتقريع "(١).

إن الرواية تقدم لنا وصفاً دقيقاً لحالة المدمن عندما ينقطع عن تعاطى المخدر حيث يعيش الآلام المبرحة التى تطال كل أجزاء جسده ، ويعبر الكاتب عن ذلك بعبارات دالة يستخدم فيها بعض المصطلحات العامية المحفورة بمعانيها فى الذهن العام (عاش سنوات عمره حليفاً للكيف) .(ليتهم يأخذون نصف عمره ويعطونه " ريحة أفيون " ، أو ربع حشيشة) .ثم يصف لنا الحالة الذهنية والنفسية التى يحياها " يشعر أن روحه تخرج من جسده "،ويقدم لنا مفارقة دالة بين الأمن فى أقسام الشرطة وأمن الدولة ، فى الأولى يجد المرء متنفساً للحركة ، بل يستطيع أن يشترى المخدرات .أما فى الثانية فلا أحد فى الخارج يدرى به ، وهو ما يعنى أن يوضع هناك مظلوماً ، فإن ما يعانيه يفوق طاقة البشر و" الراعى كشكل " مثال لواحد من المظلومين الذين وضعوا هناك ظلماً ، لأنه لا شأن له بالسياسة ، يدل على ذلك إدمانه الذى يجعله لا يفكر فى أقرب المقربين إليه : الزوجة والابن والوطن ..ويفقد الإحساس بالضرب والإهانة والتقريع!.

وإذا كان " نجيب الكيلانى " يتكىء على المصطلحات العامية أحياناً فى وصفه أو تصويره للشخصيات والحوادث ، فإنه يتوسع أحياناً فى ذلك ليعتمد على الخيال الشعبى وحكاياته ليصف موقفاً روائياً ذا دلالة ، أو يفسر حادثاً من الحوادث لا تستبين حقيقته ويستخدم فى ذلك مهارته الأسلوبية التىتخدم هذا النوع من الخيال ، مثل الجمل القصيرة والتقليل من أدوات الربط ، والاستفادة بالآيات القرآنية ، والأمثال الشعبية ، والاستفهام التعجبى أو التقريرى ، أو الإنكارى ، ويمكن أن نجد مثالاً جيداً لذلك فى تفسير " أبو الفتوح

١ - ملكة العنب ، ٧٤وما بعدها .

الشرقاوى " لحادثة غرق السيارة فى البحر العباسى ، وهو يدعى العلم بتفاصيلها أمام أهل القرية :(من واقع سجلات النيابة القصة هكذا ..امرأة البيك الكبير أخذت عشيقها ، وهربت معه ..وصلا إلى منطقة مقطوعة على البحر العباس ..جلسا تحت مظلة القمر يشربان الخمر..ويمارسان الرذيلة ..كانت بيضاء جميلة مثل الأميرات الفاتنات ... عبثا ما شاء لهما العبث ..نزلا النهر ليستحما .." إن ربك لبالمرصاد " صدق الله العظيم .. سحبتها جنية البحر إلى الأعماق ..هرب العشيق ، وقف على الشاطىء يلطم خديه .وأخيراً طفت جثتها على السطح ..نادى العاشق :" البر يا طالب الدفن " كما نقول نحن لكل غريق.. وجد جثتها تقبل صوب الشاطىء ..صرخ ..تجمع الناس ..نعم فى الليل ..بل بعد منتصف الليل ..لا أدرى ، هذا ما حدث ..أقبل الناس من كل مكان ..كيف ؟؟ حكمة ربنا يا مؤمن ..هل تنكرون أن الله قادر على كل شىء ؟؟ أمر يؤسف له ..استولى اللصوص على المجوهرات والملابس ..وساقوا العشيق إلى دوار العمدة ..ومنه إلى المركز..

انقلبت الدنيا رأساً على عقب ..بوليس ..نيابة ..خيول ..عربات ..إسعاف .. الظاهر أنهم باشوات ..هم ملوك الفضائح ..) [1].

هذا ما تفتق عنه خيال " أبو الفتوح الشرقاوى " ، وأنكره عليه الطفل " شوقى " أمام الناس ، ولكنه أصر على أقواله التى أودت به فيما بعد السجن والعذاب والمحاكمة ولكن يبقى أن ماقاله " أبو الفتوح " ولو كان منسوباً إليه ، إلا أنه فى حقيقة الأمر ينتسب إلى الخيال الشعبى فى تفاصيله وتصوره للطبقة العليا وسلوكها ، فضلاً عن آثار القصص الشعبى الذى يغذى الوجدان .

١ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى ، ١٠.

ويمكن أن يلحق بالخيال الشعبى فى الوصف ما يمكن تسميته بالأسطورة الممتزجة بالدروشة (شبه التصوف) ، وهى نوع من التراث الشعبى الذى يصوغه الناس بطرق شتى وفقاً لتصوراتهم وأماكن تجمعاتهم ، وإن كان مدلوله فى النهاية ينبىء عن غاية واحدة .

يتحدث عبد المتجلى مع زوجته أم صابرين :

"- يقولون إن جدى كان من أهل الخطوة .

- كيف ؟

زعم رجال القرية الذين ذهبوا لأداء فريضة الحج فى الأراضى المقدسة ، أنهم رأوه يؤدى الشعائر فى الوقت الذى يعلم الجميع أنه لم يغادر كفرسالم ..الذين ذهبوا رأوه هناك، والذين بقوا رأوه هنا ..أتصدقين ؟! .

- زمت شفتيها مفكرة ، وأجابت ..

- ولم لا ؟؟ إن الله قادر على كل شىء ..

- نحن اليوم لا نصدق إلا مانراه ونلمسه .

- قد يكون جدك من أهل العلم والولاية ..

اعتدل وأخذ يحدثها عنه ، اعترف لها أن جده لم يكن عالماً ، بل كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، عاش كمن يهيم فى حلم أو غيبوبة ..هكذا قالوا ..أنا لم أره ..رووا لى كان يلبس جلباباً رخيصاً على اللحم ، صيفاً وشتاءً ، ويمشى حافياً ، ويميل على أى بيت ، أو يجلس فى أى موقع ليتناول لقيمات ..لم يشته طعاماً بعينه ..كان يقول كلمات مفهومه أحياناًوغير مفهومة أحياناً أخرى .. ومن ضمن ما أخبروا به أن بعض من حاولوا إيذاءه أو السخرية منه تعرضوا لعقاب ظاهر من الله ، فأتوا إليه راغمين معتذرين عما بدر منهم

وطلبوا منه السماح ..وأخبرنى رجل معمّر قضى منذ بضع سنوات أنه كان يتوقع بعض الأحداث ويحذر..ولكنى يا أم صابرين مؤمن أنه لا يعلم الغيب إلا الله ..." (١).

يستطيع أى فلاح مثلى أن يزعم أنه سمع هذه القصة مسنودة إلى شخص ما فى قريته ، وإن اختلفت التفاصيل قليلاً أو كثيراً ، ولكن وريدها فى السياق السردى يقوم – كما القصص الأخر – بدور فى كسر حدة الرتابة والملل الذى قد يصيب القارىء ثم إن استدعاء الجد أو الأب الأعلى ، يمثل حالة من الإشباع الروحى والعاطفى التى توازى حالة الإحباط والإخفاق السائدة فى حياة عبد المتجلى وبخاصة أن هذا الجد يمثل الصلاح والطيبة ، وقهر المؤذين والساخرين .

ويمكن أن يلحق بالخيال الشعبى والأسطورة الشعبية " الحلم " أو " الرؤيا المنامية "فهو تغيير فى سياق السرد الوصفى ، وكسر لحدته ، فضلاً عن كونه وسيلة من وسائل البناء الدرامى تعويضاً عن قسوة الواقع وجهامته ، أو تمهيداً لما سيحدث من وقائع الرواية ومن ذلك الحلم الذى رآه عبد المتجلى وهو نائم على السطوح بامرأة لم يطمثها إنس ولا جانّ وكان الحلم تمهيداً لزواجه من " أم صابرين " (٢).

ومنه أيضاً ما قيل عن حلم رآه العمدة فى " الربايعة " حيث رأى أنه ذهب إلى ميضأة المسجد ، فسمع من يقول له : يا عبد الشافى اخلع عنك ملابسك النجسة واغتسل هنا وتطهر والبس ثياباً طاهرة ، ثم اذهب إلى بيتك ، ولتبك على خطيئتك.وحينما أفاق العمدة من نومه ، استغفر الله وبسمل وحوقل ، ثم أيقظ زوجته ، وروى لها الرؤيا ، وكان

١ - امرأة عبد المتجلى ، ٣٧/٣٦.
٢ - اعترافات عبد المتجلى ، ٤٦/٤٥.

تفسير، لها أن منصب العمدية وبال وشرّ، وأنه لابد أن يخلع عنه هذه الشبهة، ولذلك استقال فى اليوم التالى بعد أحداث الجنازة وتشييع قتيل العراق [١].

يقول عبد المتجلى عن علاقته بالونش :" أنا والونش أخوان تربط بيننا أواصر التكنولوجيا "، أو يقول أحد الحشاشين فى تعريف زملائه بعبد المتجلى :" أخوكم الأستاذ عبد المتجلى قدم من بلد صغير على شمال السماء يبحث عن الونش المفقود "[٢].أو يقول عبد المتجلى مخاطباً الونش الصغير الذى يشبه الونش المسروق :" إنى سائلك أيها الونش الحبيب من سرق أخاك ؟لو نطقت لكفيتنى السؤال وعذاب الحيرة .. [٣].

وعندما يتحدث عبد المتجلى مع زوجه عن جده الذى كان يعده الناس من أهل الخطوة يعلق الراوى قائلاً :" وأهل الخطوة الآن كما تعتقد أم صابرين، هم رجال الأعمال النابهين القادرين (كذا!) على تحقيق أكبر قدر من الربح، فى أقصر من الزمن، وبأيسر السبل، وأكثرها أمنا.. [٤].

وتكثر السخرية السياسية فى مجالس الحشاشين خاصة، وهى على كل حال نوع من التنفيس عن المرارة والقهر والإحباط، ونجدها بغزارة فى روايتى " اعترافات عبد المتجلى " و" ملكة العنب " ومنها على سبيل المثال ما جرى فى لقاء عبد المتجلى بالحشاشين فى مجلسهم لأول مرة، ويصفهم أحدهم بأنهم قوم كرماء " ولديهم حصانة قوية ضد أوجاع الهمّ والغمّ والكوليسترول والأفكار السوداء .تفكر عبد المتجلى قائلاً :

- ألا تخافون أن يداهمكم العسكر ؟.
- ضحك الأسطى حنفى المتولى ضحكات قصيرة متتابعة وقال :

---

١ - ملكة العنب ٤٩.
٢ - اعترافات عبد المتجلى، ٥٣.
٣ - السابق، ٥٨.
٤ - امرأة عبد المتجلى ٤٢..

- إنهم منا .
- كيف ؟؟.
- بعضهم يشاركنا الجلسة .ألسنا القاعدة الشعبية ؟.
- لهذه الدرجة ؟.
- بل هم من مباحث المخدرات نفسها ..
- يا للمصيبة !!.

يا بنى أولاد مزّاج ..لو كنتُ ممن بيده السلطة لخصصت دعماً أو على الأقل علاوة للمساكين مثلاً .... (١).

وإذا كانت السخرية تضفى حالة من المرح أو تثير بعض الابتسام عند القراءة فإن الصور الجزئية التى يصوغها الكاتب غير سرده الوصف تمنح أسلوبه طاقة إضافية من الحيوية والجدة ، وبخاصة إذا كانت هذه الصور تحمل لوناً من الطرافة أو الدلالة الرمزية ويقابل القارىء كثيراً نت هذه الصور على مدى صفحات الروايات الأربع ، ومنها على سبيل المثال ." طاقاته (عبد المتجلى) فى حاجة إلى منظم كالذى يضعونه فى أنابيب الغاز ، قد تستغرقه أمور تافهة أو ثانوية ، ويهمل كبريات القضايا .. (٢).وكأن الكاتب يريد من الجيل الجديد الذى يمثله عبد المتجلى ، ألا ينشغل بالفرعيات والجزئيات ، ويركز على القضايا الكبرى والأساسية .

" لشدّ ما أصبحت نحيلة !! الذئاب يسرقون طعامك كما سرقوا عمرك وعمر أبى ..وكما سرقوا الونش الضحية .." (٣). لقد قال عبد المتجلى ذلك ، وهو يحتضن أمه بعد

---

١ - اعترافات عبد المتجلى ٥٠/٥١.
٢ - السابق ١٨.
٣ - نفسه ، ٢١.

عودته إليها ، وكأنه يشير إلى الوطن أو مصر التى سرق الذئاب (أى اللصوص الكبار) طعامها وعمرها حتى صارت على ما عليه ، فالمماثلة واضحة بين مصر والأم .

" جلبابه يشع طهراً ونقاءً "(١).كناية عن استقامة الشيخ محمد حسب الله ، وتأمل الاستعارة التى جعلت الجلباب مثل الشمس أو القمر يشع الطهر والنقاء .

"فبدا له (يقصد دخان الحشيش) كأنه ذيل سفينة فضاء أمريكية ترتفع إلى السماء "(٢).والطريف هو استدعاء سفينة الفضاء الأمريكية لرسم صورة .

" وأنا أتواثب كالقرد الذى وضعوه فى قفص "(٣).يشبه " عوض العوضى " نفسه وقد تعرض للتعذيب الوحشى فى جهاز الأمن ، فلم يعد قادراً على تحمل الألم وراح يقفز هنا وهناك .

البناء اللغوى :

المعجم لدى الكيلانى إسلامى لفظاً وصياغةً وانتماءً تراثياً نراه على مدى رواياته وقد ألمحنا إلى طرف منه عند تناول النماذج الوصفية التى توقفنا عندها ..ولكننا نضيف إليها معالم أخرى توضح لنا أن معجم الكيلانى فى بعض جوانبه يتناصّ مع مفردات التراث القديم فى صياغة جمله وبناء تراكيبه اللغوية ، ولنقرأ مثلاً قول خطيب المسجد للناس كى يقطع الطريق على امتداد الأزمة بين العمدة وعبد المتجلى :

" قوموا إلى بيوتكم يرحمكم الله "(٤).. فهو يذكرنا بالمأثور : " قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله " .

---

١ - ملكة العنب ،٥.
٢ - السابق ، ٣٠.
٣ - نفسه ٣٩.
٤ - اعترافات عبد المتجلى ، ١٤.

ثم نقرأ كلام عبد المتجلى ، وهو يقف وسط الغرفة وحيداً يصرخ : " أيها الناس ، العدو أمامكم والبحر من خلفكم ، أنتم محاصرون ، فتحركوا وإلا غشيكم موج من فوق موج ، وأقبلت عليكم الظلمات بقضّها وقضيضها ، أنتم نائمون والونش يسرق فى وضح النهار ، من يدرى؟ . " (١) ...إنه يذكرنا بالخطبة المنسوبة لطارق بن زياد عند فتح الأندلس ، والآية الكريمة "

"أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ" (٢).

أو يذكرنا ببعض الأحاديث الشريفة عندما يتلقى عبد المتجلى لفافة من اللحم المشوى والأرز المتبل وهو جائع ولم ير اليد المجهولة التى منحته اللفافة ، " رزق ساقه الله إليك يا عبد المتجلى ..كل ، واهنأ واحمد ربك ، وتأكد أن العناية الإلهية ترعاك " (٣).

بيد أن الذى يعنينا الإشارة إليه هنا ، هو أن أسلوب الكيلانى تتردد فيه الألفاظ الإسلامية بوصفها وعاءً عاماً يحمل معانيه وأفكاره ، وهو ما نفتقده لدى الكثيرين من كتاب هذا الزمان الذين خاصموا المعجم الإسلامى لسبب وآخر ، ففى روايات الكيلانى تستطيع أن ترى معجماً حافلاً بالمفردات الإسلامية مثل النور والإشراق والفرح والرحمة والرضا والتكبير والتهليل والبركة والتسبيح والحمد والتوفير والنعمة والتقوى والاستغفار والبسملة والحوقلة والطهر والصلاة والشريعة والحقيقة والبراق والرزق والزهد والصلاح والدعاء والجنة والآخرة والاستعاذة والاستعانة والرجاء والسلام والغيب والهدى والزكاة والصيام والحج والتسامح والمنبر والمسجد والطاعة والصبر والقضاء والقدر والإنصاف والعدل ..إلخ ، مع مشتقات هذه الألفاظ ومايقابلها فى الدلالة إسلامياً .

---

١ - السابق ، ٢١.
٢ - سورة النور من الآية : ٤٠.
٣ - اعترافات عبد المتجلى ، ٣١.

وفى الوقت ذاته فإن الكاتب يعطى لمعجمه مذاقاً خاصاً حين يستخدم المصطلحات الطبية بوصفها أثراً لثقافته الطبية وتخصصه العلمى فى مجال الطب ، فنرى مسميات : الرجيم ، والكوليسترول ، وضغط الدم ، والذبحة والأنيميا وفقر الدم والبلهارسيا والإدمان وجرعات الدواء ..

وثمة مفردات علمية أخرى دخلت إلى معجم الروايات مثل الأوزون وصواريخ الفضاء والتكنولوجيا وغيرها ..

ويمكن القول : إن المعجم لدى نجيب الكيلانى معجم إسلامى يستفيد من المصطلحات الحديثة أياً كان نوعها ، مما يجعل معجمه غنياً بالمفردات والمشتقات والتركيب المتميزة .

وقد خطا معجم الكيلانى خطوة أخرى عندما تعامل مع الألفاظ التى صنعتها الأوضاع الاجتماعية الجديدة وما أحدثته من خلل فى البنيان الاجتماعى والخلقى ، فهو يستخدم مثلاً لفظة " خنزيرة " تسمية لنوع من السيارات " المرسيدس" الفخمة :" غداً بعد صلاة الفجر سآخذك فى خنزيرتى ونرحل "(١).أو يستخدم الفعل " ترش " تعبيراً عن الرشوة بدلاً من الفعل ترشو ، حيث صار مفهوم " الرش " فى الواقع الاجتماعى مرادفاً للرشوة ، فيشير إلى أن أم صابرين استطاعت أن " ترش بعض الأموال على أصحاب السلطة حتى لا يعوقوا مسيرتها "(٢).

ولكن القارىء يطالع فى مواضع عدة استخدامات أخرى ذات دلالات عامية ، مثلاً عندما يعدّ العمدة مائدة من الدجاج والحمام واللحوم والأرز المحمرة للمسؤولين القادمين إلى القرية نجد التعليق التالى :

---

١ - امرأة عبد المتجلى ، ١٣١.
٢ - السابق ، ٨٦.

" كله من شقا المساكين ..حارونار يا حكومة " وهو تعبير شعبى يدل على السخط الناتج عن الظلم والقهر.وعندما اتهم " أبو الفتوح الشرقاوى " بأنه جاسوس لهتلر، كان التعليق :

" هو لا له فى العير ولا فى النفير..أحلف بالطلاق من ذراعى إنه تلفيق فى تلفيق.. دا فُجر يا ناس ...مال أبو الفتوح وهتلر ؟ كلام فارغ يا عالم ..حكومة فاضية " (١).

وقد يكون اللجوء إلى العامية فى مثل هذه المواقف أكثر دلالة وعمقاً بالنسبة للمصريين ، ولكنه قد يستعصى على الفهم الدقيق لدى الشعوب العربية الأخرى عند تعبيرات بعينها مثل "أحلف بالطلاق من ذراعى "

وكذلك الحال من قول المتهم للضباط عند التحقيق :" فى عرض النبى أنا لا أفهم "(٢).فعرض النبى يشكل معنى له أكثر من دلالة بمفهومه الأصلى عند من لا يفهم العامية المصرية ..ويمكن أيضاً أن يحدث الموقف ذاته بالنسبة لسؤال الضابط " اسمك وسنك وعملك يا روح أمك "(٣)، فروح الأم معناها المدح فى المعنى المباشر، ولكنها عند المصريين تعنى السخرية والاستهزاء .

هناك بعض الكلمات التى تحمل من المعانى أكثر من معناها المباشر أو المجازى فمثلاً " الراعى كشكل " أما ضابط التحقيق ، فإنه يطلب قرصين من المخدر، كى يعترف بما يريد منه فيقول الضابط للمخبر :" هات قرصين زفتاً وكوباً من الشاى "(٤).

١ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى ، ٣٢.
٢ - ملكة العنب ، ٥٦.
٣ - السابق ، ٥٥.
٤ - نفسه ، ٧٥.

فكلمة " زفت " تشير إلى المخدر، والكلمة فى ذاتها تشير إلى القطران واللون الأسود، ثم إنها بعد ذلك توحى بحالة الغضب التى تملكت الضابط نجيب لرغبة المتهم الذى يعد حقيراً بالنسبة له، ويفترض أنه هو الذى يستجيب لمطالب الضابط.

كذلك عندما نجد " عوض العوضى " يستجيب لرغبة " براعم " بالاستقامة والعمل معها، بعد أن منحته عشرين جنيهاً، فإنه يعبر عن رضاه واغتباطه بأسلوب يحمل المعنى العكسى، ولكنه فى المفهوم العامّى يؤدى المطلوب بعمق ودقة، إنه يقول لها تعبيراً عن حالة النشوة والفرح التى تملكته.

" أروح فى داهية يا ست براعم ..أنت من الواصلين ..ربنا يجعلنا من بركاتك " (١).

بيد أن الكاتب قد يقع فى خطأ استعمال بعض الألفاظ التى شاع استعمالها خطأ، مثل :" الشىء الهام "، والصواب " الشىء المهم "، لأن " الهام " يحمل معنى الهمّ والحزن، وهو ما لا يقصده الكاتب بالضرورة، ويتكلم عن " القصص الشيقة " والصواب " القصص الشائقة " لأن الشيقة هى المثيرة للشوق أما الشائقة فهى المتعة كما يقصد الكاتب (٢). ويقول :" لو (نما) إلى علم المسؤولين (٣)، والصواب نمى، لأن نما الأولى تعنى النمو، وتكتب بالألف لأنها منقلبة عن واو. وأما الثانية فهى تعنى الإخبار، وتكتب بالألف المقصورة. ويقول " كانوا متواجدين فى تلك الليلة " (٤).والصواب موجودين أو حاضرين، لأن التواجد من الوجد وشدة الشوق، وهو مالا يعنيه الكاتب.

وهناك استخدامات غير مقبولة لبعض الألفاظ، كأن تقول " مسعدة " لجاموستها وهى تحلبها :

---

١ - نفسه أيضاً، ١٠٠.
٢ - اعترفات عبد المتجلى، ١١.
٣ - السابق، ١٥.
٤ - ملكة العنب، ٢٧.

" يا عاهرة ..يا قليلة الحياة ..اثبتى حتى أحلب اللبن ..عذبتنى عذبك الله فى جهنم " (١)، ولفظة " عاهرة " غير مقبولة فى السياق ، وإن كانت الفلاحات تستخدم كلمة أخرى قبيحة ، وحذفها لا يؤثر على السياق بحال .

الحوار

يمثل الحوار فى روايات نجيب الكيلانى جانباً مهماً فى البناء اللغوى ، والبناء الروائى بصفة عامة ، فهو من ناحية يكشف عن أعماق الشخصيات وتحولاتها ، ويلقى أضواء على مسار الأحداث وتفاعلاتها ، ومن ناحية أخرى يظهر مدى قدرة الكاتب على الاستفادة من الحوار فى إثراء اللغة القصصية والتغلب على عيوب السرد بضمير الغائب ، وقد استطاع نجيب الكيلانى أن يوظف الحوار توظيفاً جيداً ، وأن يقدم حواراً راقياً يجمع إلى الاختزال الشعرية وعمق الدلالة.وها هو نموذج لحوار عبد المتجلى مع شيخ الخلوة بمسجد السيدة زينب عن طلاقه لأم صابرين واختفائها ، وفيه يستشهد الشيخ بقول "الإمام البصرى "و شغلنى توَقُّعُ بلائها عن الفرح بنعمائها " .

ووجد عبد المتجلى نفسه يقول للشيخ :

"- لقد أخطأت .

- وما الفائدة ؟ .

- علمنى بالخطأ بداية الإصلاح .

- لكنك تحبها .

رد عبد المتجلى بانفعال :

- أم صابرين ؟ .

---

١ - نفسه ١٢.

- بل الدنيا .
- لكنى لا أفكر إلا فى أم صابرين الآن ..لقد طلقتها ظلماً ....

هز الشيخ رأسه :

- طلقتها ولم تطلقها ..
- هذا حق ..إنها لم تزل تسكن قلبى .
- دنيا
- أين أجدها يا مولانا ؟
- أنا لا أعرف الغيب ...ولكنها بالتأكيد فى الدنيا ..ابحث تجد ..
- هائم على وجهى لا أعرف لى طريقاً .
- ذلك هو الضلال البعيد .
- أنا مؤمن واخشى الله .

وكيف يكون المؤمن مهيض الجناح يا ابن رمانة ؟ العاشقون يطيرون بغير أجنحة ،وقلوبهم لها عيون .. هم محلقون دائماً.. إن المؤمن الحقيقى هو الذى لا يخاف الغد ..يعمل ويعمل ويترك الأمر لله ..أصبحت سلطاناً يا ابن رمانة .السلاطين يخافون زوال الملك والنفوذ ، وأنت أيها الراقص فى وحل الدنيا ..

- إنها حقى ، ولهذا خلقها الله .
- أجل ، لكن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، أنت لم تعد تقرأ القرآن كالأمس ..

لم تعد لك قضية كبرى ...إلخ "[1].

١ - امرأة عبد المتجلى ، ١١٤/ ١١٥.

ويكشف الحوار كما نرى ، عن حقيقة مشاعر عبد المتجلى تجاه زوجته ، كما يبين عن حيرته بين ماضيه الذى كان ينشد فيه المثال ، وحاضره الذى يستسلم فيه لمعطياته المادية ، وينبئنا الحوار كذلك عن الخلل الخطير فى حياة عبد المتجلى ، وهو تعلقه بالدنيا وابتعاده عن القرآن ، وانعدام القضية الكبرى التى يجاهد من أجلها ! إن الحوار هنا عنصر إضاءة للشخصية وأعماقها المكنونة .

بيد أن الحوار يحقق غاية أخرى ، هى ما يمكن أن نسميه بالسخرية السياسية ، أو النقد السياسى ، وهى مسألة تبدو عسيرة فنياً ، ولكن الكاتب يسخر الحوار وخاصة حوار الحشاشين ، لممارسة هذا النقد وتلك السخرية ، من ذلك مثلاً ما قاله " الراعى كشكل " فى إحدى جلسات التحشيش ، عن أمريكا ، فيصفها بأنها بلد العجائب وشعبها هو الذى ينكل بالشرطة ، وليست الشرطة هى التى تنكل بالشعب ، وأن الحرية فيها غير محدودة فى كل شىء ..والسجون هناك مثل فنادق الدرجة الأولى ، وعندما يسأله أحد المبهورين :ولماذا لا نتجنس بالجنسية الأمريكية ؟ أليسوا فى حاجة إلى خبراء من أمثالنا ؟ فيرد الراعى ساخراً :

بلدنا فى حاجة إلى خبراتنا ، قولوا بربكم هل سيجدون من يضربونه إذا نحن هاجرنا ؟ وإذا هاجرنا فلا بد أن نترك هنا أقفيتنا وأردافنا" "(١).

ويوظف الكاتب هذه السخرية عن طريق المفارقة ليحدث أثراً مباشراً وعميقاً لما يريد توصيله على لسان شخوصه ، ولعل ما قاله " الراعى كشكل " أيضاً ، فى التحقيق بأمن الدولة يكشف لنا عن هذه المفارقة ، ومعذرة لطول الاقتباس ، يقول الراعى للضابط :

- لقد عرفت طريقى من قديم .

---

١ - ملكة العنب ، ١٨.

- أى طريق يا راعى ؟.

- أن أكون مع الحكومة بالحق والباطل ..أنا مواطن مثالى يا بك .....تستطيع أن تقول أن لا رأى لى شخصياً فى مثل تلك الأمور، الرأى رأى الحكومة ..وعلينا السمع والطاعة ..لقد تعلمنا أن نطيع ولى الأمر..

قال الضابط فى دهاء :

- وإذا حادت الحكومة عن الشرع ؟؟.
- هى حرّة .
- وإذا ظلمناك .
- الحكومة دائماً على حق .
- يا رجل ، قل كلاماً غير هذا ألا تحقد حتى ولو بقلبك ؟؟.
- ليس لى قلب .
- معقول؟.
- اسأل أهل الربايعة ..صحيح أنا " صاحب مزّاج " لكنى فى منتهى العقل والرزانة .
- فأجأه الضابط بقوله :
- ما رأيك فى الشيخ محمد حسب الله ؟
- مغرور.
- لماذا؟.
- يظن أنه يستطيع إصلاح الكون .
- ولم لا .

- الكون خلقه الله وهو المتصرف فيه .
- لكنه يدعو الناس إلى الحكم بالشريعة .
- إذا حدث فسوف يجلدنى ، وقد يرجمنى ..
- وهو يجمع الشباب من حوله ويحرضهم .
- أدبوهم ..وأدبّوا أهليهم ..إنهم طائشون لا خبرة لهم بالحياة ...".

ويمضى الحوار طويلاً على هذا النحو ، إلىالدرجة التى يقول فيها الراعى :" الحكومة أمنا الكبيرة ..وعقوق الوالدين كبيرة من الكبائر " فيصفه الضابط بأنه مواطن صالح (١).

والمفارقة فى هذا الحوار لا تحتاج إلى كثير بيان ، إذ تكشف مدى القهر الذى تنزله السلطة بمواطنيها فتستلب إرادتهم وعقولهم وفكرهم ، إلى الدرجة التى تجعل كل آمالهم تنحصر فى النجاة بأنفسهم ، ولو كان على حساب العقيدة والشريعة والقيم والأخلاق والمستقبل !.

ثمة قيمة أخرى يحققها الحوار فى روايات نجيب الكيلانى ، وهى توظيف الأيات القرآنية الكريمة فى ثناياها للإجابة المقنعة على سؤال حائر ، أو تعضد فكرة ما ، أو رأى ما والجدير هنا أن عملية التوظيف تبدو داخلة فى النسيج اللغوى ، وتمثل لحمة طبيعية فيه فلا تشعر بتكليف أو نُبو وأحسب ذلك من قدرات الكاتب فى استغلال الكنوز الأدبية التراثية بصفة عامة ، والنص القرآنى بصفة خاصة .

وفى المثال التالى نلمح طرفاً من ذلك حيث يجرى استجواب " أبو المجد شاهين " أمام ضابط التحقيق حيث يقول الضابط :

---

١ - ملكة العنب ، ٧٥.وما بعدها .

" – أسألك المظاهرة التى شاركت فى قيادتها .

- الجنازة .
- بل المظاهرة .
- إن هى إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ..." (١).

التضمين والاقتباس :

إذا كان نجيب الكيلانى يوظف الآيات القرآنية فى الحوار، فإنه يستفيد من التراث الإسلامى الأدبى كله فى توظيف العناصر الملائمة ، لإثراء سرده الوصفى وزيادة الإيضاح ، والتأثير على القارىء وإثارته فهناك إلى جانب القرآن الكريم الحديث القدسى والحديث الشريف ، والدعاء ، ومقولات الصحابة والصالحين ، والزعماء الوطنيين ، والشعر والموال ، والأغنية ، والأمثال العامية ، والحكم القديمة ومقالات الصحفيين ومذكرات المحامين ، وكل عنصر من هذه العناصر يؤدى دوره الإيجابى ، فى جذب مشاعر القارىء وشده إلى التفاعل مع النص الروائى تفاعلاً إيجابياً ، وفيما يلى النماذج الدالة .

فى مجال توظيف الآيات القرآنية فى السرد ، تقدم رواية " ملكة العنب " نماذج كثيرة منها هذا المثال عندما اختلف أهل القريتين حول زواج " براعم " من قريبها أو الشيخ " محمد حسب الله " فإن أبو المجد شاهين يرفع كفيه إلى السماء ويقرأ من القرآن (إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىۡءٍ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾) (٢).صدق الله العظيم .

---

١ - ملكة العنب ، ٦٧، وانظر أمثلة أخرى عديدة منها على سبيل المثال : امرأة عبد المتجلى ، ٣٨، ٥١، ٥٢، ويذكر أن " نجيب محفوظ " حاول توظيف الآيات القرآنية فى بعض رواياته مثل " يوم قتل الزعيم " ورحلة ابن فطومة " مع الفارق بين النجيبين ...

٢ - سورة يس : الآيات ٨٢-٨٣.

ثم يقول :" فلتتجهوا بقلوبكم وأرواحكم إلى مالك الملك وحده " (١).

وقد رأينا من قبل نموذجاً لتوظيف الآيات القرآنية فى الحوار، وتوجد نماذج عديدة تتحقق فيها أهمية النص القرآنى الدال على الموقف أو العبرة سواء فى السرد أو الحوار.

بيد أن الكاتب يقدم جديداً مفيداً عندما يوظف الحديث القدسى – ربما لأول مرة فى الرواية العربية – بصورة تحقق دلالة عميقة وإقناعاً كبيراً ، فى سياق تنبيه الأذهان إلى معادلات منسية ، تأمل " أبو المجد شاهين " وهو يرد على المخبرين فى المباحث حين قالوا :إنهم يخشون قطع عيشهم لو لم يستجيبوا للأوامر الظالمة !.

" يا أبنائى المساكين ..إنهم لا يملكون رزقاً لأحد ، ألم تسمعوا الحديث القدسى الذى يقول : أنا أرزق ويعبد غيرى ؟" (٢).

" يقول سيدى وسيدك : من روع آمناً روعه الله يوم القيامة "(٣).

ويلحق بتوظيف الحديث القدسى والحديث الشريف ، توظيف الدعاء ، الذى يعبر عن حالة من يدعو، وفى الوقت ذاته يجعل الشخصية المتدينة فى الرواية أكثر اقتراباً من تحقيق الأمل ، وأكبر قدرة على تحدى المحن والعقبات ، ولنتأمل ما يقوله أبو المجد شاهين فى جوف الليل قرب الفجر، عندما اشتدت محنته :

" إلهى نامت العيون ، وهدأت الجفون ، وأنت حى قيوم ، لا تأخذك سنة ولا نوم .. إلهى فسدت الأحوال ، فلا تفتنا فى ديننا ولا تحرمنا ثواب ابتلائك لنا "(٤).

---

١ - ملكة العنب ، ١٧١-١٧٣.
٢ - السابق ، ٦٥-٦٦.
٣ - اعترافات عبد المتجلى ، ١٢٠.
٤ - ملكة العنب ، ١٠٢.

أما التضمين بالشعر، فيأخذ مجالاً رحباً فى روايات نجيب الكيلانى بعامة، وفى رواياته التى بين أيدينا بخاصة، وهى عملية تلوين السرد، وتوكيد للمعانى، وارتقاء بخيال القارىء ووجدانه إلى سماء الشعر، وغالباً ما يستدعى أبياتاً للمشهورين من الشعراء وبخاصة شوقى والمتنبى والخيام والبوصيرى والإمام البرعى ومنها :

" الدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء "(١).

" يا راحلين إلى (منى) بقيادى شوقتمُ يوم الرحيل فؤادى "(٢).

" أمن تذكر جيران بذى سَلَم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم"(٣).

" غد بظهر الغيب واليوم لى وكم يخيب الظن فى المقبل "

ولست بالغافل حتى أرى * جمال دنياى ولا أجتلى "(٤).

بيد أن نجيب الكيلانى، أعطى للزجل أو الموال اهتماماً كبيراً يعادل اهتمامه بالشعر، إن لم يفقه، ولعل ذلك يرجع إلى ارتباط الوجدان المصرى بالموال وما فيه من نفحة حزينة تلمس وتراً حساساً فى مزاج المصريين ونفسيتهم، وتعبر عن تجاربهم المريرة فى التاريخ والحاضر، وغالباً ما يكون الموال تعبيراً عن موقف صلب يمر به البطل، وفى الوقت ذاته يقوم بدور الترويح عن القارىء، وتخفيف سرعة الإيقاع العنيف للأحداث، وبخاصة حين يأتى الموال على لسان المغنى أو المنشدين من خلال المدّ والتكرار.

أنا رايح للحسين * أشكى له بلوتين

آه ..وأقول له يا حسين * ياللى جدك النبى ..النبى ..النبى "(٥).

---

١ - اعترافات عبد المتجلى، ١١٩.
٢ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى، ٣٨.
٣ - السابق، ٤١.
٤ - اعترافات عبد المتجلى، ٥٢.
٥ - السابق، ٤٢.

أيضاً ، فإن الموال يأتى أحياناً ليعبر عن رغبات دفينة بالتحرر من القيود والمحافظة على الكرامة ، اتساقاً مع المواقف الرثائية :

مالوش مثيل فى البرارى وخَدلُه فِ السحايب دار .. السحايب

عاشق نجوم السما ، والبدر ، والنسمة

لا يوم يطاطى ولا يرضى بعيشة العار (١) .

وقد يكون الموال تورية عن حالة خوف وعدم قدرة على التصريح بما يدور فى النفوس :

امبارح العصر جانى الحب فى قلبى

خايف أقول آه من اللى قاعدين جنبى (٢) .

أما الأغنية فتأتى للتعبير عن حال يعيشها البطل ، أو وسيلة من وسائل الانتقاد الساخر ، مثلما نرى حديث عبد المتجلى عن أغنية قديمة فى بداية الثورة يرنّ صداها فى أذنه " خلّى الثورة تولع نار " حيث يقول :" لا أتذكر إلا كلمة تولع نار ..تولع نار " (٣) ، والإشارة واضحة إلى النار التى أشعلتها الثورة فى النفوس والقلوب بسبب المآسى والمظالم التى ألحقتها بالأبرياء .

وهنا قد يعاود الاعترَض الذى سبقت الإشارة إليه حول العامية إلى الظهور مرة ثانية ، سواء تعلق بعامية الموال أو الأغنية ، وهو اعترَض وجيه ، ولكن الواقع يقرر أن دلالة الموال والأغنية فى السياق الرثائى ، والمواضع التى وردا فيها ، كانت من أبلغ وأعمق

١ - امرأة عبد المتجلى ، ٦٠.
٢ - اعترافات عبد المتجلى ، ١٠٣.
٣ -امرأة عبد المتجلى ، ١٥

الدلالات بالنسبة للقارىء المصرى ..أما القارىء العربى خارج مصر ، فلا ريب أنه سيفقد قدراً لا بأس به من المعانى التى يقصدها الكاتب .

ويأتى التضمين بالمقال ، فيأتى فى سياق رصد الأحداث الجارية ومعالم الصراع الاجتماعى وملامحه ، ومثال ذلك ما أورده الكاتب ، مما كتبته صحف الصباح عن الإفراج عن أهل الربايعة :

" انتصر فكر الربايعة ، وانهزمت الدبلوماسية المحترفة ، كيف يستطيع الجلادون إخفاء وجوههم القبيحة ؟ .

وكتب أحد كبار الصحفيين يقول :

إن المظاهرة التى حدثت فى قرية الربايعة تؤكد الحس الوطنى الصادق ، وسلامة الوعى الجماهيرى فى القضايا العربية والدولية ، وليس فى الأمور المحلية وحدها ..إلخ "(١).

ومثال المقال مذكرات المحاميين ومرافعاتهم التى تعدوسيلة من وسائل الهجاء السياسى للسلطة وكشف وحشيتها ضد المواطنين الأبرياء كما نرى فى مذكرة الأستاذ الخشاب المحامى :

- لا جريمة،وما جرىلأبو الفتوح تلفيق الجريمة هى اغتيال حقوق الإنسان وإهدار حرياته وكرامته وشرفه وأمنه .
- السلطات الأمنية استغلت الحرب والأحكام العسكرية للتنفيث عن شذوذها فى التسلط والقهر وإنفاذ سياسة القطيع .
- أبو الفتوح ليس وحده الذى عانى ويعانى ، فهناك الملايين من الجرائم التى تتم فى الظلام تحت ظلال الطوارىء والأحكام العسكرية .

---

١ - ملكة العنب ، ١١٣.

- أطالب بتحرير الملايين المضطهدة الفقيرة من سجن الاستعمار الداخلى المتمثل فى سياط العسكر، ومن سجن الاستعمار الخارجى الذى جثم على أرضنا عشرات السنين.
- الطريق أمامنا هو منهج النبى صلى عليه وسلم وشريعته الغراء (١).

ويلاحظ بصفة عامة أن التضمين، وبخاصة التضمين بالمقال والمذكرات يعد نوعاً من التفكير العقلى أو الخطاب المباشر أو الكلام بصوت عال، ولكن الشكل الذى جاء فى سياقه يدخله إلى مجال الفن، بل يجعله عنصراً مهماً يكسر حدة السرد كما قلنا من قبل، ويضىء جوانب مهمة فى الشخصية أو الحدث ويعطينا بصورة ما دلالة على وعى الكاتب ومخزونه الثقافى.

ويعد ...

فإن أسلوب نجيب الكيلانى يمثل السهولة والبساطة، ولكنها السهولة الممتنعة، والبساطة المتميزة، وفى كل الأحوال، فإنه يوصل أفكاره ورؤاه بطريقة فنية محكمة، فيها أصالة الفنان، وحكمة المفكر، وشجاعة المجاهد.

---

١ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى، ١٠٧/١٠٦، وانظراً أيضاً: ٨٣/٨٢.

الخاتمة

الخاتمة

رأينا فيما سبق أن الواقعية الإسلامية لدى " نجيب الكيلانى " تعنى الانتماء لقضايا الأمة والاهتمام بشؤون الناس وأمورهم ، ومواجهة المشكلات الخطيرة التى يعانون منها بطريقة جادة وواثقة ..لذا دارت أحداث رواياته فى بيئة يتعرض أهلها عادة للظلم والقهر ، ويعانون الفقر والقمع ، ويعيشون بين مطرقة الخوف وسندان النفاق ..وقد قدم الكاتب نماذج لشخصيات مؤمنة تجعل غاياتها إرضاء الله قبل إرضاء الناس ، وتحتسب عنده ما تلاقيه من عنتٍ واضطهاد ، كما قدم نماذج أخرى لشخصيات انحرفت عن المنهج السليم ، واستسلمت للغواية ، وخدمت الشيطان ، فقهرت ، وظلمت ، وتوحشت ولكن النتيجة لم تكن فى صالحها لأن الشر مهزوم لا محالة .

وقد استفاد الكاتب من العناصر المتاحة لبناء الحوادث فى رواياته وتسلسلها ، فجاءت الحبكة عموماً محكمة ومتقنة ، وساعدته فى ذلك خبرته الطويلة بالفن القصصى ..

أما أسلوبه ولغته ، فيدلان على وعى عميق بطبيعة البيان العربى ، مع سيطرة جيدة على المعجم اللغوى الغزير ، واستخدام موفق للعناصر التراثية فى وصفه وسرده .

إن روايات نجيب الكيلانى ، تبعث الأمل فى انتشار أدب إسلامى قوى ، يحقق إلى جانب شرف الموضوع جودة الأداة ، وهو ما يحثنا أيضاً على مزيد من القراءة فى أدب الرجل ، وأدب غيره من الأدباء الإسلاميين المرموقين ، وتشجيع المواهب الشابة التى تسعى لخدمة الدين وتملك الموهبة الأصيلة . والله من وراء القصد ..